القطط

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

القط حيوان مغرور؛ وله العذر يا أخي والله . . ولو أن أمة من الأمم بدا لها في عصر من العصور أن تعبد أجدادي أو أن تعتقد أن روح الله حالة في أجسادهم لكنت حقيقاً أن أزهى وأتكبر وأتغطرس وأرفع رأسي حين أكلم الناس، وأزم بأنفي وأتبجح عليهم بما ليس عندي، وأتمدح بما ليس في، وأكون على العموم — وباختصار — نفاجاً فياشاً إذا كنت تفهم ما أعني

ولست أتخذ القطط ولا أحبها أو أطيقها، لأن آبائي لم يكونوا ممن عبدوها أو آمنوا بحلول روح الله فيها وإن كانوا قد عبدوا في جاهليتهم ما هو أحط منها في مراتب الحياة — الأصنام والحجارة — ولكنك تكفر بالحجر فتكسره وتفرغ من أمره. أما القطط فتنق في أمرها إلى الرشد ولكنها هي لا ترشد أبداً ولا يفارقها الغرور العظيم الذي داخلها مذ رأت نفسها معززة مكرمة — بل معبودة — بلا موجب، فالبلاء لهذا مقيم والمصيبة خالدة والعياذ بالله

ومن غرور القط أنه لا يستأنس أبداً — يسكن بيتك ويأكل طعامك برضاك أو على الرغم منك، ومع ذلك لا يكون معك إلا على حرف ... تمسح له شعره فيثني أرجله تحته ويرخي جفنيه ويروح يزوم أو «يقرأ» كما يقول العوام فكأنك تستلم حجراً مقدساً من فرط ما يكون من انصراف هذا الحيوان المتكبر عنك، وتدغدغه فلا يعنى بأن ينظر إليك ليرى من أنت — أغريب أم صاحبه الذي يطعمه ويؤويه — بل ينحي عليك بأظافر يده وبفمه في آن معاً . وتقدم له اللقمة من الخبز فينظر إليها شزراً ويعرض عنها محتقراً لها ويحول رأسه عنك بكبر دونه كل كبر وترفع لا يطاق حتى لكأنك تلغو في حضرة البابا .. فاذا كان ما تعرضه عليه لحماً أو سمكاً أهوى عليه بأسنانه وهو معبس متجهم وانتزعه منك كأنما أنت تدنسه بلمسه أو حمله . ولا يكون معك أبداً إلا متحرزاً متوثباً متوقعاً منك الغدر ومتهيئاً لمباغتتك بالخيانة، وليس أطغى منه ولا أغلظ كبداً . وما أظن بالقاريء إلا أنه رأى ما يصنع القط بالفار وكيف يمسكه بين يديه حتى يكاد يميته من الفزع ثم يطلقه ويقصر عنه فيقف الفار المسكين جامداً لا يتحرك ولا يكاد يصدق أنه حر وأن في وسعه أن يذهب ويجري . والقط ساكت لا يمد إليه يداً ولا يبرز مخلباً فيطمئن الفار ويشرع في الهرب وهو يتلفت حتى إذا وثق أنه آمن وثب عليه القط وهو يضحك في سره وغرس في جنبيه مخالبه وراح يشكه بها شكاً يكون خفيفاً تارة وثقيلاً أخرى ثم يكف عنه مرة أخرى — وعينه عليه — ويكتفي بأن يربض ويتربص له وأن يلاحظه وهو يتلوى من الألم . ويدرك الفار أن الشك قد انقطع وإن كان حر ما لقي منه لا يزال شديداً فيتشهد ويقول «ياحفيظ .. أعوذ بالله ... على وجه من أصبحت في يومي المنحوس هذا ياترى ... على كل حال الحمد لله .. قدر ولطف .. وترى أين ذهب هذا الوحش الضاري .. ياحفيظ .. ياحفيظ .. اللهم استرنا ... اللهم الآن أن أذهب إلى جحري فانه على ضيقه خير ألف مرة من ميدان هذه الغرفة التي لا آمن أن يثب علي فيها قط آخر .. والعياذ بالله» ويتوكل المسكين على الله ويقول «هيه .. يامعين» ويروح يجر رجلاً بعد رجل؛ وذيله مسحوب وراءه على الأرض؛ ولا تبقى له قدرة على التلفت من فرط الأعياء ومن كثرة ما نزف منه من الدم القاني فيمضي إلى الجحر وهو لا ينظر لا إلى اليمين ولا إلى الشمال ولا قدامه ولا خلفه؛ حتى إذا قارب الجحر وانتعشت نفسه قليلاً وعظم أمله في النجاة والسلامة وطول العمر وهم بوثبة أخيرة إلى حيث لا تدركه القطط ولا تستطيع أن تتبعه، إذا بالقط المتربص على ظهره، ومخالبه في لحمه الطري، فيدرك الفار اليأس ويستسلم ويقول في سره وهو يؤكل عسى الله أن يعوضني يوم النشور داراً أخرى لا قطط فيها .. ويلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يحلم بجنة الفيران

والقطط تولد عمياء مطبقة الأجفان فيدركنا العطف عليها وترق قلوبنا لها فنعنى بها ونتعهدها ونسقيها اللبن الذي هو لطعامنا، ونبرها ونسرها سنة بعد سنة، ونفرح بها ونعجب بمنظرها ونباهي الجيران، ثم يتفق أن نخرج يوماً وأن توصد الأبواب ونحن لا ندري أن القط في إحدى الغرف ونغيب شيئاً ثم نعود إلى البيت ويدخل أحدنا حجرة النوم ليخلع ثيابه فيغلق الباب وراءه كعادته وإذا بالقط على السرير يتحفز للوثوب عليه وتمزيق لحمه — ما في ذلك شك — فكأنه ليس أمام قط صغير وإنما هو

أمام نمر مفترس فيضطرب الرجل وتتخاخل ركبتاه ولا يعود يعرف أين الباب، والقط يعوء بل يعوى ويتوثب كالمجنون وقد نسى كل ما كان من سابق النعمة ولم يبق له هم إلا الخروج من الغرفة أو افتراس هذا الذي دخلها عليه وإن كان سيده وصاحب الفضل عليه

وقد لقيت من قطط الجيران الأمرين فما أحب القطط كما أسلفت . وما أكثر ما يحدث أن أنسى نافذة مفتوحة أو باباً مواربا فيدخل القط ويمضي إلى أواني الطعام ويكشف عنها الغطاء — أي والله ولو كانت من النحاس الثقيل — ويلتهم كل ما بقي .... وقد كان لي جيران ما رأيتهم قط ينامون إلا بعد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ جميعاً . وكنت أضحك إذ أسمع رب بيتهم يصيح في الليل — والصوت في الليل يسري — « يا حنيفة .. هل أغلقت باب المطبخ؟ » فتصيح حنيفة من مرقدها والنوم يغالبها : « أيوه ياسيدي ... » فلا يقتنع ويخشى أن يكون الكسل قد أغراها بالكذب فيقول « يحسن أن تقومي وتستوثقي » وبعد قليل أسمعه يؤنبها ويقول لها « ألم أقل لك .. هذه النافذة لم تكن محكمة الأيصاد ... وهذا الباب ... انظري ... لو دفعه إنسان بيده لا نفتح » فتحلف أنها أوصدت كل الأبواب والنوافذ فيقول « لا يا بنتي . . . دوري قبل النوم على كل الأبواب وكل نافذة وامتحني كل منفذ بيدك لتتحققي » وكنت أعجب لهذا التفزع وأسأل نفسي عما يخيفه وهو في عمارة لها بواب لا ينام إلا بعد أن يدخل كل السكان ثم يغلق بابها بالمفتاح ويضعه — أعني المفتاح لا الباب — في جيبه . فإذا تأخر أحد السكان احتاج أن يدق ويقرع الباب .. ثم زال عجبي لما بلوت قطط الجيران .. وأيقنت أنه لا يخاف اللصوص وإنما يخاف القطط .. وله العذر

والعامة تعتقد أن للقط سبع أرواح وما أظنهم إلا صدقوا، ومن كان يشك في ذلك فليتأمل كيف يسقط القط من فوق السطح العالي فلا يزيد على أن ينظر يمنة ويسرة — فإن في القطط تحرزاً شديداً — ثم ينهض ويمضي كأنما كان قد انحدر على بساط كهربائي . وتضربه بالحجر فلا يهبضه بل يرتد عنه . وهو مثال الفردية الصارخة والأثرة المجسدة . وما رأيت قطتين اتفقتا قط، وما اجتمع قطان في مكان إلا تحفزاً للقتال فترى كلا منهما قد رفع ذيله وقوس ظهره وراح يجس الآخر بعينه وهو يزوم ويقول : « واوووووووو » ويدور حوله ليغافله وينشب فيه أظفاره . والقطة هي الدابة الوحيدة التي تأكل صغارها فتأمل ذلك . ومن كان يعرف أن حيواناً مستأنساً آخر يفعل ذلك فليخبرني فإن العلم بهذا ينقصني

ومن غرور القط أنه يعتقد أن ريقه ترياق ، فتراه يضطجع على جنبه ويلوي عنقه ويقبل على شعره بلسانه يلحسه ولا يخجل أن يستحم على هذا النحو أمام الناس ، بل لعله يباهي بذلك ويفخر قبحه الله ؛ وهو مفطور على الغدر والخيانة فلا أمان له ولا اطمئنان منه لأحد من الخلق ولا لشيء من الأشياء فهو لهذا سيء الظن ، حتى إنك لتراه إذا صار على رف أو لوح من الخشب يخطو كأنما هو يمشي على الجمر فيضع كفاً وينتظر ويخيل إليك من وقفته أنه يختبر المواطيء بكفه ويقدر مبلغ ثباتها وقد رنها على احتمال ثقله . ثم يمد يده الأخرى وينتظر شيئاً زيادة في الاستيثاق ومبالغة في الحذر ولا يجد ما يبعثه على الشك ، ومع ذلك يظل يتريث حتى تزهق روحي وأنا أنظر اليه . وإذا رابه شيء رد يده وسحبها من موضعها بسرعة وخفة ؛ ولو كان الانجليز قد خلقوا قبل القطط وسبقوها إلى الدنيا والحياة لقلت إن القطط أخذت ذلك منهم وقلدتهم فيه فانهم مثلها يقدمون على الشيء متحرزين ، ويخطون خطوة ثم يقفون ينظرون ما يكون ، فاذا جرت الأمور على غير مايحبون أو يتوقعون ارتدوا بخفة وبسرعة وإلا تقلوا رجلاً أخرى وهكذا ، فيظهر أنهم هم الذين يتقيلون القطط ويحاكونهم في هذا والله أعلم

ولم يسرني قط وجود قطة في بيتي إلا مرة واحدة ، وكان قطا ملعونا لا يزال كلما أوينا إلى مضاجعنا يتسلل — لا أدري من أين — إلى المطبخ ويرفع كل غطاء عن كل وعاء ويقلب كل صحن ويروح يعبث بما في المكان . وليست تقمتي عليه من أجل ما يسرق فقلما يجد شيئاً في المطبخ لأن عادتنا أن نأكل كل شيء ولا نبقي شيئاً قبل أن ننام ، فلا تبيت الأوعية والصحون إلا فارغة نظيفة ، والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه . وإنما تقمتي عليه من أجل الضجة المزعجة التي يحدثها والصحون والأطباق التي يكسرها فنهب مذعورين من فرط الضوضاء ونذهب نعدو إلى المطبخ عسى أن ندرك شيئاً قبل أن يتحطم ، وإذا بالقط اللعين يثب من الرف حين يرانا إلى النافذة دفعة واحدة . وأقسم أن